بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة للطبعة الثالثة

عن اللسانيات العربية

وقراءة النص الأدبى

أتى على النص الأدبى فى العربية المعاصرة زمان نوقشت فيه أخطر قضاياه مناقشة انبتت فيها الصلة أو كادت بالمنظور اللسانى ، بل إن الجمهرة الغالبة من الدارسين لم تكد تحس وجودا لضرورة منهجية ملجئة إلى مثل هذا النوع من النظر . وربما كان موضع العجب فى ذلكم أن كثيرا من مشكلات النص الأدبى التى كانت مناط خلاف بين النقاد هى ذات جوهر لغوى ، على نحو لا يتصور معه إمكان فحصها على غير اساس من رؤية لسانية مستنيرة ومنضبطة . ولست أدرى كيف استطاع أهل النقد أن يخوضوا معاركهم حول الأشكال الشعرية الجديدة ، ووظيفة الفن ، ولغة العمل الأدبى ، فى غيبة التأسيس اللسانى لهذه المشكلات ، مع أن مثل هذا التأسيس هو شرط ماهية لسلامة الأحكام وصحة النظر .

وقد مرت على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنوات عشر ، كان فيها - على بساطة إخراجه وتواضع حجمه - محل النظر والتقويم من عدد من النقاد

واللسانيين وأصحاب البحوث الأكاديمية لدرجتى الماجستير والدكتوراه . واشير - فى هذا المقام - لاقصدا إلى حصر - إلى كتب ودراسات لأحمد عزت البيلى وصلاح فضل وشفيع السيد ومحمد العبد وحلمى القاعود (من مصر) وعبدالله الغذامى وسعيد السريحى (من السعودية) ، ومازن الوعر (من سوريا) ، ومحمد بلواهم (من الجزائر) ، ومحمد حسن مهدى الشلاه (من العراق) ، وتراوحت هذه الاستجابات بحسب ما أمكنى رصده منها - بين الشك ، والترحيب المتحفظ ، والاقتناع المقرون بالحماسة لاعمال مقولات الكتاب واجراءاته البحثية ، واعتمادها أساسا للتحليل والاستنباط .

ولست بحاجة إلى أن أؤكد أنى بكل ذلك حفى وسعيد ، وربما كانت حفاوتى بما أبدى من وجوه التحفظ والنقد لاتقل بحال عن سعادتى بما لاقاه الكتاب من ترحيب واقتناع متحمس . فقد اتاحت لى الاستجابات المتحفظة والناقدة فرصة تقديم مزيد من الايضاح والبيان لأمور وجوانب فى الكتاب وفيما يمثله من اتجاه احسبها كانت فى حاجة إلى ذلك . كما أن هذه المناقشات - على تنوعها - كانت فى رأيي مؤشرا هاما على أن غياب المنظور اللسانى فى دراسة النص الأدبى . يقابله الآن ما يشبه أن يكون إفاقة من سبات منهجى عميق ، يحاول فيه كثير من النقاد تعويض ما فرطوا فى جنب اللسانيات ، إذ استبان كثير منهم أنهم كادوا أن يهدروا كينونة النص وجوهر الأدبية فيه ، وجعلوا منه خادما وتابعا لكل علم ، ولم يسلموا بأهليته فى أن يكون موضعا للنظر العلمى لذاته ، بل إنهم لم يقدروا الأمور حق قدرها حين مدوا أبصارهم إلى مجالات معرفية قصية ، هى على أهميتها لاتغنى عنهم من العلم شيئا إن تجاوزوا عطاء اللسانيات الحديثة ومنجزاتها فى دراسة النص الأدبى ، فهى على كل حال أمس به رحما وأعظم له جدوى .

ونحن معنيون فى هذه المقدمة بأمور : أولها رصد أسباب القطيعة غير المقصودة بيقين بين أهل النظر من النقاد واللسانيين العرب ، وحظ كلا الحزبين من

المسئولية عن ترسيخ هذه القطيعة . وثانيها : تحديد مظاهر التقارب بين الفريقين ، والكشف عن مواطن الخلل فيما أنتجه ذلك من نقد لسانى ، أو نقد يسترشد فى ممارسته بالتحليل اللسانى . ويتكىء على تصوراته ومقولاته . وثالثها : استشراف مستقبل هذه الحركة ، وتحديد الكيفيات التى تعالج بها مواطن الخلل ، وتنشط بها من عقالها لتحقق غاياتها العلمية فى خدمة الإبداع الأدبى فى العربية . وتنتظم هذه الغايات الثلاث فى بابين من القول ، ينصرف الأول إلى «نقد الذات» ، أى معالجة المسألة فى جانب «اللسانيات» ، وهى المجال الذى نشرف بالاشتغال به والانتماء إليه ، والثانى إلى «مكاشفة الآخر» ، ونعنى به فريق النقاد الذى يجمعنا وإياه النص الأدبى، بما هو هم مشترك لكلينا ، وإن اختلفت بيننا الغايات والوسائل .

ونحسب أن الأمور باتت فى حاجة إلى هذا «النقد» وإلى تلك «المكاشفة» ، بعد أن بلغت بنا مبلغا لايحسن السكوت عليه . ولئن اتسم القول هنا بشىء لا مفر منه من الحدة والصراحة ، إننا على يقين - إن شاء الله - من صدق الباعث عليه ، وشرف المقصود به . ومن ثم فنحن نرجو ألا يقع هذا القول من أى من الفريقين موقعا لاترضاه، فالخير أردنا ، وعلى الله قصد السبيل .

إذا كانت جميع العلوم الإنسانية فى أوربا قد انتجعت فى نهاية الأمر حقل اللسانيات ، وأقرت لها بفضل السبق إلى دخول فردوس العلوم المنضبطة ، واستعانت تصوراتها ومناهجها وطرق البحث فيها لتدقيق معالجتها لما تتصدى لدراسته من ظواهر - فإن أمر القول فى العلاقة بين اللسانيات والنقد الأدبي فى العربية يختلف اختلافا ظاهرا عنه فى غيرها من اللغات . ذلك بأن تشكل اللسانيات الحديثة ونموها فى أوربا كان نتاج تطور طبيعى فى سياق ثقافى نشط وحافل بالحوار العلمى والجدل الفكرى المنتج بين العلوم . وصحيح أن اللسانيات الأوربية قد أعرضت ونأت بجانبها - غالبا - عن دراسة النص الأدبى فى أوليات النشأة ، لكنها ما إن فرغت من هموم النشأة

والتأسيس وترسيخ استقلالها حتى استجابت لتطلعات العلوم الإنسانية الأخرى ، واتجهت بكليتها للإسهام فى معالجة المشكلات التى هى موضع النظر المشترك بينها وبين تلك العلوم ، وعلى رأسها مشكلات النص الأدبى . ومن ثم فإن الفجوة التى فصلت بين اللسانيات البنيوية الوصفية والنقد الأدبى أول الأمر لم يقدر لها أن تدوم طويلا ، كما أن عقد الصلة بين هذين المجالين من مجالات المعرفة قد تم فى تطور طبيعى كان من الممكن التنبؤ به سلفا . أما عندنا نحن - أهل العربية نقادا ولسانيين - فقد كنا دائما تجاه التأثير الأوربى فى موقع المنفعل والمستهلك وليس الفاعل المنتج . وقد سبق تأثر النقاد بالتيارات والمذاهب الأدبية فى أوربا قيام اللسانيات الحديثة فى بلاد العرب بزمن طويل ، ثم إن هذا التأثير النقدى اتخذ سبيله فى مجرى الثقافة العربية بمعزل عن اللسانيات وهمومها العلمية الضيقة إبان النشأة ، حتى إننا لانكاد نتسمع لهذه العلاقة إلا أصداء خافتة تتردد فى كتابات بعض النقاد من جيل الرواد .

أما اللسانيات الحديثة ، فمنذ اتصلت أسباب الباحثين العرب بها بعد الحرب العالمية الثانية - دخل اللسانيون فى حال دفاع عن ذواتهم ، وعما حصلوا من معارف جديدة . وكان همهم أن يفسحوا لهذا الجديد مكانا فى سياق ثقافى غير موات ، يشعر فيه القائمون على أمر علوم العربية ، من أفراد أو مؤسسات ، باكتفاء ذاتى لايحتاجون معه إلى مزيد أو جديد ، ويرون فى كل ما يروجه اللسانيون المحدثون ضربا من البدع المحدثات . حينئذ كان من البدهى أن ينصرف نشاطهم البحثى إلى غايتين هما : الجدال مع التراث اللغوى العربى ومن ينصبون أنفسهم حفظة له وحراسا عليه ، ثم تقديم اللسانيات ، أو ما يطلق عليه ، «علم اللغة» ، إلى جمهرة الباحثين والمتخصصين فى علوم العربية تعريفا بها ، وإقناعا بجدواها وبما يناط بها من آمال . ومن البدائه أيضا أن الغايتين كلتيهما قد ارتبطتا معا بأوثق رباط ، واعتضدتا برافد آخر من روافد النشاط اللسانى تمثل فى قيام نفر من جيل الرواد اللسانيين ومن جاء

بعدهم بترجمة بعض الأعمال اللسانية الأوربية أو تعريبها . ولن نعرض الآن بتفصيل القول فى تقويم أثر هذه الترجمات أو المعربات ، فقد وقع أكثرها - على أهميته ودوره المقدور - دون المراد من حيث عدده وقيمته وتنوعه وقدرته على البيان . ومن نافلة القول أن نقرر أن اللوم فى ذلك لاينصرف إلى المشتغلين بعلوم اللسان وحدهم ، بل ربما ينصرف بمقياس الأولى إلى منظومة التصورات والسياسات الثقافية والعلمية التى تحكم نظرة المؤسسات الرسمية والأكاديمية إلى الترجمة ودورها فى التحديث العلمى . ومن عجب أن يفطن أسلافنا إلى خطر هذا الأمر منذ عشرات القرون ، وأن يأخذ النصيب الأوفى من السياسة التعليمية لدى محمد على قبل قرابة قرنين من الزمان ، ثم تكون هذه هى نظرتنا إلى القضية وقد انصرم القرن العشرون أو كاد . وعلى أى حال فإن تقويم الترجمات اللسانية يحتاج إلى كلام شديد التحصيل والتفصيل ، ولعلنا نعود إليه فى مقام آخر .

لذلك يمكن أن نرصد - من موقع «نقد الذات» - كثيرا من مظاهر القصور فى حركة البحث اللسانى العربى ، ترتد أسبابها إلى ما يصاحب الجديد الوافد فى العادة من تهيب له أو انبهار به ، ومن عجز عن ملاحقته فى تطوراته السريعة المترادفة ، وتعصب مدرسى ملازم لتعدد الانتماءات واختلاف المذاهب ، وتهافت غير القادرين من ذوى المواهب المحدودة على الانتساب إليه ، ومقاومة البيئات العلمية المحافظة له ، وشك المشتغلين به فى قدرتهم على تغيير التصورات الراسخة ذات الهيمنة والسلطان الذى لا يتحلحل على البنى الفكرية والعقدية عند المحافظين . ويزيد الأمر صعوبة وعسرا بالنسبة للثقافة العربية ما تشكله المسلمات الكابحة للعقل الناقد بصفة عامة ، وما يتصل بعمل هذا العقل فى المجال اللغوى بصفة خاصة .

من هنا لم يكن عجبا أن تستغرق اللسانيات العربية همومها وأشغالها العلمية التى حدت من فاعليتها فى تشكيل ثقافتنا المعاصرة . وقد أنتج هذا كله عددا من مظاهر الخلل فى التأليف اللسانى . وكاتب هذه الدراسة حين يرصد أبرز هذه المظاهر يرى لزاما عليه أن يستيقظ الأنظار إلى أمور : منها أنه هو نفسه واحد ممن يشرفون بالانتماء إلى حزب المشتغلين باللسانيات التى هى عنده أخطر العلوم الإنسانية مطلقا، والقيمة على دراسة اللغة التى هى مجلى عمل العقل ووعاء معارفه ، ومنها : أن هذا الانتماء يبرئه من القصد إلى غمط هذا العلم والمشتغلين به حقهم ودورهم فى الثقافة العربية المعاصرة ، وإن من هؤلاء أساتذته الذين علموه ، وفيهم رفاقه وتلامذته من ذوى الفضل الذى لايجحد ، ومنها أنه هو نفسه أيضا لايبرىء عمله ونتاجه من مظهر أو آخر من مظاهر القصور والخلل التى يعددها ، ولا يزعم الكمال لنفسه إلا من افتقده، لهذا كان هذا الرصد نوعا من الحوار مع النفس وبين أهل البيت الواحد ، سعيا لكمال منشود بصدق النية وإخلاص العمل .

ونأخذ الآن فى ذكر ما نعده مظاهر للخلل فى المكتبة اللسانية العربية فنقول :

المظهر الأول : هو اشتمال هذه المكتبة على كم هائل من «المقدمات» أو «المداخل» إلى علم اللغة أو اللسانيات (أو الألسنية أحيانا) لا يكاد يمتاز بعضها من بعض من حيث الغاية التى تنتصب لتحقيقها ، وتكييف بنية «المدخل» أو «المقدمة» على نحو تتحقق به الغاية . ومن ثم فقد جاء المحتوى العلمى فيها ملكا مشاعا بين كاتبيها ، وانتفت مظاهر التفرد والخصوصية . وليس أكثرها إلا استجابة آنية لمتطلبات المقررات الدراسية فى الجامعة ، وتلبية آنية لحاجات الطلاب ، مع ما يفرضه ذلك بالضرورة من تنازلات وتضحية بأشراط الجدية والصرامة العلمية الواجبة .

وصحيح أن حركة التأليف فى «المقدمات» و «المداخل» اللسانية لم تتوقف إلى يوم الناس هذا ولن تتوقف ، ولكن الأمر فيها يختلف عما هو الحال عندنا بملاحقتها

الدائبة لتطور العلم ، وتنوع الغايات المبتغاة من التأليف ، والصياغة الخصبة والمنتجة لحقائق العلم ، وتنوع الانتماءات المذهبية والمدارس اللسانية . وأين نحن من هذا كله فيما كتبنا ونكتب من مداخل أو مقدمات ؟ .

الثانى : عجز اللسانيات العربية - لاسيما فى العقود الثلاثة الأولى من نشأتها - عن أن تعكس خريطة شاملة للمدارس والاتجاهات اللسانية الحديثة فى أوربا . وقد كان هذا وفاء من روادها الأوائل لالتزامهم المدرسى . غير أن هذه الخريطة كانت - وما تزال - معقدة إلى حد كبير . وأنت إذا قرأت كتب رائد اللسانيات العربية الأول أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله وجدت عبارات يخطئها الحصر من مثل قوله : «ويرى علم اللغة الحديث كذا» ، أو «فى رأى علماء اللغة المحدثين كذا» . ومن هنا استقر فى روع جيل الخالفين من أمثالى أن «علم اللغة الحديث» علم واحد ، وأنه منظومة متجانسة من المقولات والتصورات يكاد يضيق الخلاف حول أسسها المنهجية ، أو ينتفى ، وأن المنتمين إلى هذا العلم إنما يصدرون عن رأى واحد فى المشكل الواحد . وهكذا انطلق كثير من أبناء جيلى وممن جاء بعدنا ليرصعوا أغلفة كتبهم ورسائلهم بعنوانات من مثل : «كذا فى ضوء علم اللغة الحديث» ، حتى إذا فتشت فى أكثرها لم تجد إلا طائفة من المقولات التى تلقاها أصحابها بالقبول ، ورأوا فيها مسلمات ومصادرات علمية لاتقبل الجدل ، لانتمائها إلى ما يسمى بعلم اللغة الحديث ، على حين أن أكثرها هو من الخلافيات بين أهل العلم من أتباع الاتجاهات والمذاهب المختلفة .

وهكذا كانت كتب الرواد التى وصلتنا ببعض المدارس اللسانية فى الغرب حجابا - فى الوقت نفسه - بين من جاء بعدهم وسائر المدارس اللسانية الأخرى ، وما كان ذلك عن خطأ من أساتذتنا ، ولكنه قعود الهمة والاستكانة العلمية من الخالفين .

الثالث : أن اللسانيات العربية لم تتصد للمشروعات القومية الكبرى ، ولم يستطع المشتغلون بها أن يقنعوا المؤسسات العلمية والثقافية المعنية بجدوى إنجاز الأطلس القومى للهجات ، أو كتابة تاريخ اللغة العربية (أو المعجم التاريخى لها ، وذلك أضعف الإيمان) ، أو إصدار ترجمات معتمدة يتولاها شيوخ هذا العلم لأمهات المراجع والمصادر اللسانية الحديثة . وكان حريا بالتأليف اللسانى - لو انتحى هذا المنحى - أن يغير كثيرا من مظاهر الاضطراب والخلل ، لا فى مجال اللسانيات فحسب، بل فى علوم كثيرة أخرى ، كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الثقافات ، ودراسات الأدب الشعبى .

الرابع : أن الترجمات التى صدرت لأعمال لسانية غربية حكمها فى كثير من الأحيان طابع الاصطفاء ، أو المصادفة ، أو إيثار السهولة ، كما أن كثيرا منها يكابد مشقة السيطرة على الفكرة فى أصولها ، وإحكام العبارة عنها فى صياغتها العربية . وحسبك أن كتاب «سوسير» لم يعرف الطريق إلى العربية إلا بآخرة من الزمان ، وأنه حين أذن الله بذلك دخل العربية فى ترجمات ثلاث دفعة واحدة ، تفاوتت فيما بينها تفاوتا ظاهرا . واكتفى القادرون منا بالرجوع إلى أصله الفرنسى ، أو إلى ترجمته فى الانجليزية . وكان حريا بنا أن يكون أول ما ينبغى نقله إلى العربية ، وأن يتصدى لذلك شيخ من أولى العزم والراسخين فى العلم .

الخامس : أن كثيرا من التصانيف اللسانية هى ترجمة أشبه بتأليف ، أو تأليف أشبه بترجمة . وفى مثل هذه الأعمال إثم كبير ومنافع للناس ، غير أن إثمها - فيما نرى - أكبر من نفعها ، لما تنطوى عليه فى الغالب من تعفية على الأصول ، وتشويه لها ، ومن عقد الصلة بين الأفكار لأدنى ملابسة ، واستفزاز لها من سياقها العلمى والثقافى على نحو يجعلها غير منتجة أو فاعلة ، ومن تلفيق ظاهر فى أكثر الأحيان بين معطيات العلم الوافد والعلم الموروث .

ذلكم هو حاصل القول فى «نقد الذات» ، فماذا عن الشق الثانى من القضية ؟

أما وقد قضى الله فى أمر اللسانيات العربية بما هو كائن ، فلم يكن بدعا من الأمر أن يتجرد للإفادة من علوم اللسان طائفة من المشتغلين بدراسة النص الأدبى من أهل النقد . وقد رأى هؤلاء ما أحدثته اللسانيات من ثورة شاملة فى الدرس الأدبى الأوربى بخاصة ، وفى العلوم الإنسانية بعامة ، وعاينوا ما أنتجته من آثار علمية لا يشبهها إلا نتائج الانقلاب الصناعى فى تاريخ أوربا الاقتصادى ، بيد أنهم تطلعوا إلى اللسانيات العربية وعطائها المرتقب فى دراسة النص الأدبى فلم يظفروا منها بطائل، ولم يسعدهم أهلها على تحقيق غايتهم ، والجواب عما يحيك فى صدورهم من مسائل ، فكان أن هبط كثير منهم على ميدان اللسانيات بالمئات ، فجاسوا خلال الديار فوجدوها خلاء أو ما يشبه الخلاء ، ومن ثم أصبح جميعهم لسانيين بالهواية أو الحق الإلهى فى ساعة من نهار ، وصنفوا فى مسائلها أنحاء مر التصنيف ، استشرت فيها عدوى التأليف بما يشبه الترجمة ، والترجمة بما يشبه التأليف .

والغريب ، وما عاد شىء فى هذا الزمان بمستغرب ، أن تقوم كتب ورسائل برمتها على مفاهيم لسانية مغلوطة ، يفتقد أصحابها أوليات المعرفة بطرق التحليل اللغوى ووسائله ، ثم يكون لها من ذيوع الذكر وبعد الصيت ما يكون ، ويتلقاها بالإطراء قوم يظهرون العلم بعظائم الأمور وهم عن صغارها غافلون ، بل إن من الرسائل العلمية ما يقوم على إعمال طرق تحليلية عاجزة أو مناقضة لما ينتصبون لتحقيقه من غايات علمية ، ومن ثم تراهم يكتبون تحت أخطر العنوانات أهون القول .

لقد اتخذت ألقاب الأسلوبية والبنيوية وما جرى مجراهما سردابا خلفيا لاقتحام معقل أخلاء أهله فكان بالنسبة لمقتحميه كأرض التيه ، ذلك بأن فحص النص الأدبى بالطرق الأسلوبية التقليدية ، أو بوسائل الأسلوبيات الموسعة ، أو بالاسترشاد بمقولات اللسانيات واستمداد نماذجها ، إنما يتطلب تمكنا من أدوات التحليل اللسانى على مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، يتأبى على أهل العجلة والتسرع .

وإنى لأعلم علما ليس بالظن أن العلم لايمتنع على من أخلص فى طلبه ، وأن اللسانيات ليست كهنوتا وطلاسم مغلقة دون من لا يملك كلمة السر . بيد أن هذا العلم العزيز الجانب لاينيل نفسه لمن أراغ بعد الصيت وحسن الأحدوثة بأقل الجهد وأيسر المئونة . وليس هذا منا قولا مرسلا بلا دليل ، فإن عندنا من الشواهد ما يضيق عن سرده هذا المقام ، ولقد عرفنا فى مقام آخر ببعضها وأعرضنا عن كثير .

وإذا كانت لنا من كلمة خالصة لله والعلم فإننا نتوجه مرة أخرى إلى زملائنا من المشتغلين باللسانيات العربية ، فبصلاح أمرهم يصلح إن شاء الله خلق كثير . لقد قام جبل الرواد من اللسانيين بمهمة تاريخية كبرى ، ولكنه ، ومن أسف فى كثير من الأحيان ، لم يستطع أن يصنع على عينه جيلا من الباحثين صلاب الأعواد ، الحراص على الدرس والتحصيل والتجويد ، فخلف من بعدهم خلف لم يقوموا بعلمهم ، وكثير منهم - إلا من عصم الله - أضاع الموروث وقصر فى تحصيل الوافد ، فأخرجت الجامعات العربية كثرة كاثرة من الرسائل الجامعية ، تقصر عن تحقيق ما هو معلوم من شروط البحث العلمى بالضرورة . ومع ذلك تخرج هذه الرسائل وقد ذيلت بقائمة طويلة من المراجع الأجنبية ، ينوء القليل منها بأفهام العصبة أولى القوة ، ورصعت تضاعيفها بالمصطلحات الأجنبية وأعلام الفرنجة على نحو ظاهر الدعوى . وإن من أصحابها - وقد عشت بين ظهرانيهم ربع قرن أو يزيد - من إذا سيم قراءة جملة واحدة بلغة أجنبية سيارة فى كتاب مدرسى لأعنته ذلك ، فما بالك بمصنفات اللسانيات المعاصرة ، وما أدراك ما هيه ؟

أنى لعلوم اللسان والنقد ، والحال على ما ذكرنا ، أن تجتمع وتتآزر على تحقيق المراد من دراسة النص الأدبى وهو أخطر مظاهر التشكيل اللغوى وأبعدها أثرا ؟ لقد أصبح النص الأدبى كجالس فيما بين كرسيين ، على ما يقول الفرنسيون فى أمثالهم ، بين تفريط قوم وجرأة آخرين . وما أحسب الأمر مستقيما على الجادة إلا إذا أخذنا

أنفسنا وطلابنا بالجد الصارم ، وآمنا - لسانيين ونقادا - بأن قيمة كل امرىء منا ما يحسنه ، فكلانا واقف على ثغرة من ثغور العربية هو عنها مسئول . ونحسب أن الإبداع الأدبى فى العربية هو أجل من أن نضيعه بين جمود يضع الباحث به أصابعه فى آذانه ويستغشى ثيابه ، وحداثة زائفة تقوم على أخلاط من المعارف لايمسكها قوام ، وعجلة ظاهرة فى اعتساف الأمور ، إذ ماذا يبقى لنا - نحن الذين شرفنا الله بالانتساب إلى العلم - إذا أحببنا العاجلة ، وآثرنا ما يذهب جفاء من الزبد على ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض

سعد مصلوح

فاتحة الكتاب

نحمدك اللهم ، ونستعينك ، ونستهديك ونستغفرك ، ونعوذ بوجهك الكريم من العجب بما نحسن ، ومن التكلف لما لا نحسن ، ونصلى ونسلم على خير خلقك ، وخاتم أنبيائك سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، والمهتدين بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد شغلتنى قضية التماس المعايير الموضوعية لدراسة الأدب منذ أمد ليس بالقريب . وكانت دافعى إلى أن أجعل موضوع أطروحتى لدرجة الدكتوراه دراسة معملية عن «الأسس الصوتية الفيزيقية للقافية العربية» .

وكان من دواعى تفاؤلى أن الاتجاه إلى دراسة لغة الأدب عامة والشعر خاصة قد اتخذ سبيله إلى مجالات الدرس الأكاديمى فى الجامعات العربية . غير أنى وجدت أكثر هذه الدراسات ما يزال مفتقرا إلى علمية المنهج وانضباط الوسائل ، وخاصة فيما يتعلق بالجانب الاحصائى . ومن أهم مظاهر هذا القصور أن الباحثين يعنون أنفسهم بتقديم عشرات الجداول الاحصائية يضمنونها نتائج بحوثهم . ومع ذلك تأتى عديمة الجدوى ، خالية من كل تحليل ذى قيمة للبيانات . ولا شك أن مثل هذا العمل باهظ التكاليف ومحدود النفع فى آن معا .

وأرى أن عمود الأمر وسنامه هو أن نعرف ماذا نحصى ؟ وكيف نحصى ؟ ولم نحصى ؟ . وقد رأيت أن أكثر ما وقع لى من بحوث فى هذا الشأن يكابد الكثير من الغموض فى هذه الأمور الثلاثة . ومن ثم استعنت الله سبحانه فى وضع مكتبة أرجو أن تكون متكاملة فى قضايا التحليل الأسلوبى ومناهجه ، ومشكلاته النظرية والتطبيقية ، ويمثل هذا الكتاب أولى ثمارها . وهدفى من ذلك أن أجنب الباحثين اللغويين كثيرا من العقبات التى تعوق طريقهم ، وتصدهم عن معالجة لغة الأدب وفق منهج علمى منضبط ، وأن أدعو دارسى الأدب المخلص إلى الاطلاع على الأفكار السائدة الآن فى مجال دراسة الأسلوب ، واختبار هذا النهج ، والافادة منه فى مجالات بحوثهم .

ويجد القارىء فى هذا الكتاب محاولة عرض ومناقشة لبعض المقاييس الكمية التى تستخدم فى تحليل الأساليب واختبارها مع تطبيق لها على عدد من النصوص العربية شملت نماذج من لغة الصحافة ، ومن أعمال طه حسين والعقاد وأحمد شوقى ومحمد عبدالحليم عبدالله ونجيب محفوظ . وقد أردت بهذا أن يكون الكتاب جامعا للناحيتين النظرية والتطبيقية ، فطالما شكونا وشكا الدارسون من انحسار دائرة التطبيق فى هذه المناهج الحديثة إلى أقصى مدى ، والاسراف الشديد فى تناول المفاهيم والتصورات النظرية إلى أقصى مدى .

وانى أتوجه بكتابى هذا إلى المهتمين بدراسة الأسلوب من المشتغلين بعلم اللغة ومن دارسى الأدب العربى . وأرجو أن يجدوا فيه شيئا جديدا وجديرا بالنظر . كما أتمنى أن يسهم الكتاب فى العمل على ازدهار هذا المجال الخصب من مجالات المعرفة .

وفى الختام لا أنسى أن أوجه شكرى خالصا إلى الصديقين الدكتور حلمى خليل أستاذ علم اللغة المساعد بجامعة الاسكندرية والدكتور فهمى حرب أستاذ الأدب العربى المساعد فى جامعة الملك عبدالعزيز بالمملكة العربية السعودية على تفضلهما بقراءة

مسودة البحث وابداء ملاحظات قيمة على لغة الكتاب وطريقة العرض حفزتنى إلى إعادة النظر فى صياغة بعض الفقرات على نحو جعلها - فيما أحسب - أكثر وضوحا، وأوفى بالمراد منها .

هذا وبالله التوفيق ومنه العون

سعد مصلوح